المحاضرة الأولى : أوليات الدرس اللغوي في المغرب والأندلس

نشأت الدراسات اللغوية عند العرب بسبب تفشي ظاهرة اللحن في أوساط المجتمعات العربية وذلك بعد دخول الأعاجم في الإسلام، واختلاطهم بالقبائل العربية، التي كانت تقع بمحاذاتهم، أو في الحواضر التي استوطنها الكثير منهم سواء كان ذلك بسبب التجارة أو الرغبة من الأعاجم في مجاراة المسلمين والاقتداء بهم في سلوكاتهم ومعاملاتهم، أو بدافع ديني عند آدائهم لفريضة الحج أو بغرض فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحا وذلك بتعلمهم للغة العربية.

وبانتشار الإسلام في شمال افريقيا والأندلس، انتقل الدرس اللغوي إليهما كما انتقلت اللغة العربية والكتاب العزيز، إلا أن ذلك تأخر ردحا من الزمن، نظرا لتباعد الشقة بين هذه البلاد وبين العراق مهد النحو واللغة العربية. فلم تزدهر الحركة اللغوية في الأندلس إلا خلال القرن الرابع الهجري والقرون التي تبعته، لأن عناية الولاة على الأندلس من قبل بني أمية منذ فتحه سنة 93 هـ كانت منصرفة إلى اخضاع البلاد للخلافة فحسب، ولما استقلت بنو أمية بالأندلس على يد عبد الرحمن الداخل صقر قريش سنة 138 هـ وتوطد فيها الملك له ولعقبة من بعده استقبلت الأندلس عهدا جديدا وبدأت الحركة العلمية فيه، بفضل مناصرة بني أمية اللغة جريا على دأب بني أبيهم في المشرق، فأرغبوا العلماء في العلم، وكافئوهم على دراستهم وتصنيفهم، فاستحث ذلك دول المغرب التي كانت تموج بالاضطرابات آنئذ، لأنها دول عربية تقدس الكتاب الكريم وتعكف على اللغة العربية لغة الدين. ونهضت المغرب تجاري الأندلس بحكم قرب الجوار واتحاد اللغة والدين، لذلك تجشم أفراد من الأندلس والمغرب الأسفار إلى المشرق ورووا عن علمائه واقتبسوا من معارفهم إذ لم يكن في مقدورهم الرحلات إلى البوادي ومشافهة الأعراب فيها كما صنع المشارقة، وعادوا إلى المغرب والأندلس مزودين بعلوم المشارقة زيادة على ماجلبوا معهم من مؤلفاتهم.

وقد تجاوب مع هذه الرحلات المشرقية في رفع شأن اللغة العربية تقاطر المشارقة وتوافد كثير من علمائهم على المغرب والأندلس لتوافر المرغبات في النزوح إليهما ماديا وأدبيا.

أولا: الدراسات اللغوية

ازدهرت الحركة العلمية في الأندلس بصفة عامة والدراسات اللغوية بصفة خاصة، وزاد من تطورها تشجيع الحكام على ذلك خاصة في القرن الرابع الهجري، حيث اهتم (الحكم المستنصر ت 366 هـ) بنقل العلوم والمؤلفات وجمعها في مكتبته، فقد كان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب في كل أنواعها... وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها... حتى اجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله.

وممن ورد الأندلس في عهده أبو علي القالي (ت 356 هـ) الذي دعاه فلبى الدعوة جالبا معه أحمالا من الكتب العربية القديمة من أجل تعليمها لطلبة العلم هناك، وقد رعاه أحسن رعاية وأحسن مثواه حتى لقي ربه، وتوفي بقرطبة سنة 356 هـ.

وقد اشتهر القالي بمؤلفاته اللغوية المهمة التي صنفها في الأندلس وذاع صيتها، ولعل أهمها معجمه البارع في اللغة والذي ألفت حوله وحول كتاب العين العديد من الشروح والحواشي والتعليقات أهمها وأشهرها "مختصر العين" الذي يعد ثاني معجم ظهر بالأندلس للزبيدي تلميذ القالي وهو اختصار للعين نال رواجا في الأندلس وخارجها.

القالي ومعجم البارع: القالي هو اسماعيل بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان المعروف بأبي علي القالي، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب. تلقى ثقافته الأولى ببغداد التي أقام بها خمسة وعشرين سنة، وبعدها بدأت رحلته المغربية

للأندلس، وفي قرطبة استقر وبلغ الشهرة أيام عبد الرحمان الناصر، وتعلق به الحكم المستنصر بن الناصر، ويقال: إنه هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه، وكان الحكم قبل ولاليته وبعد توليته ينشطه على التأليف ويشجعه بواسع العطاء وفرط الإكرام، وكان بذلك يدعمه ماديا ومعنويا.

تلقى القالي النحو وعلوم العربية على يد ابن درستويه والزجاج والأخفش الصغير، ونفطويه وابن دريد وابن السراج، وابن الأنباري وغيرهم؛ وقرأ عليه الناس كتب اللغة والأخبار، وقد صنف كتاب الأمالي في الأخبار والأشعار الذي عرف بأمالي القالي ويدعوه بعضهم باسم النوادر، كما صنف كتاب "المقصور والممدود والمهموز" الذي قيل أنه لم يؤلف في بابه مثله، وكتاب الأمثال وهو مرتب على حروف المعجم، وله شرح المعلقات، ورسائل عن الخيل والإبل، وله معجم من أوسع كتب اللغة سماه "البارع في اللغة".

معجم البارع للقالي: وهو كتاب مسهب في اللغة العربية، ومعجم كبير في ألفاظها، وهو أول معجم عربي عرفته الأندلس، وذلك في منتصف القرن الرابع الهجري، إلا أنه لم يصل إلينا كاملا، فقد ضاعت منه المقدمة وأجزاء أخرى كثيرة، مما جعل تحديد منهجه وطريقته التي سار عليها أمرا صعبا؛ إلا أن المتأمل فيما وصل إلينا منه يدرك أن القالي لم يسر على نهج أستاذه ابن دريد صاحب "الجمهرة" في ترتيبه المعجمي فقد عاد بدوره إلى الترتيب المخرجي كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه "العين".

وقد رتب أبواب معجمه ترتيبا يوافق الخليل ولكنه يخالفه في بعض الحروف كما هو مبين فيما يلي:

ترتيب الخليل: ع ح ه خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ط د ت ـ ظ ذ ث ـ ر ل ن ـ ف ب م ـ واي ـ الهمزة.

ترتيب القالي:

هـ ح ع خ غ ـ ق ك ـ ض ج ش ـ ل رن ـ ط د ت ـ ص ز س ـ ظ ذ ث ـ ف ب م ـ و ا ي

والملاحظ أن القالي كان أدق في التزامه بترتيب مخارج الأصوات دون العودة إلى صفاتها كما فعل الخليل، حيث وضع القالي ل ر ن قبل ظ ذ ث ، كما وضع ط د ت قبل ص ز س، كما خالفه أحيانا في ترتيب حروف المخرج الواحد.

إلا أنه يتفق مع الخليل في مبدأ التقليبات حيث يقلب كل مادة لغوية على جميع الأوجه. أما نظام الأبنية فقد تابع فيه الخليل إجمالا وخالفه تفصيلا كجمعه أبواب المعتل على اختلاف أنواعه، وجاءت أبوابه كالآتي:

1- أبواب الثنائي المضاعف ويسميه الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة.

2- أبواب الثلاثي الصحيح بأنواعه.

3- أبواب الثلاثي المعتل بأنواعه.

4- أبواب الحوشي أو الأوشاب.

5- أبواب الرباعي وأنواعه.

6- أبواب الخماسي وانواعه.

وذكر القالي في باب الأوشاب أسماء الأصوات ومحاكاة الطيور والحيوانات، وقسّمه في بعض الحروف إلى الفصول الآتية:

1- الثنائي المخفف

2- الثلاثي الصحيح

3- مضاعف الفاء واللام (الأول والآخر)

4- الثلاثي المعتل

5- اللفيف

6- المضاعف الرباعي

كما يلاحظ دمجه لما يسميه الصرفيون بالرباعي المضاعف مثل : (زلزل) في الثنائي المضاعف كما فعل الخليل في عينه.

ومما يؤخذ على كتاب البارع ـ كغيره من المعاجم العربية أنه قد يذكر الكلمة مرتين، كذلك أكثر فيه المؤلف من ذكر أشياء عديدة على سبيل الاستطراد؛ فمثلا عند ذكره لكلمة "داماء" التي فسرها بأنها جحر اليربوع، نجده قد ذكر سبع مترادفات أخرى لتلك الكلمة، وفسر كل مترادف، وذكر ماقيل بمناسبته من الشعر مما استغرق قدرا كبيرا من الكتاب، على حين كان ينبغي أن يقتصر في كل حرف على ذكر الكلمة التي وردت في ذلك الحرف فقط، ولكن يظهر أن شخصية الأديب في القالي كانت تميل إلى الطناب والاستطراد، كما كان يفعل في كتاب "الأمالي"، وإن اختلفت موضوعات الكتابين اختلافا كليا.

المحاضرة الثانية: أوليات الدرس اللغوي في المغرب والأندلس

ثانيا: الدراسات النحوية: اكتست الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس طابعا شفويا إلى غاية نهاية القرن الثالث الهجري، حيث اقتصرت الجهود الأولى على تدريس الكتب الوافدة من المشرق، أو مجالس المناقشة الشفوية لمتفرقات من المسائل اللغوية والنحوية. فلم تشهد هذه المرحلة ظهور محطات تذكر سوى بعض الأعلام الذين ترجم لهم الزبيدي وغيره وأشاروا إلى أنهم من أهل العلم بالعربية واللغة، أو كان لهم بصر تام بالنحو واللغة، أو كان لهم حظ من إعراب ولغة.

أما أول نحاة الأندلس فهو جوديّ بن عثمان المورووري (ت 198 هـ) الذي رحل إلى المشرق وتتلمذ للكسائي والفراء، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس، وتصدر لإفادة اللغة والنحو حتى توفي بقرطبة سنة 198 هـ تاركا مؤلفا في النحو يعدّ امتدادًا للنحو الكوفي.

ثم أخذت الحركة العلمية لدراسة النحو تزدهر في الأندلس، إلا أنها صبّت عنايتها أولا على النحو الكوفي مقتدية بنحويّها الأول جودي بن عثمان ويقودها طلابه الذين أخذوا عنه وتأثروا به، فكانت مؤلفات الكسائي والفراء موضع اهتمام نحاة هذه المرحلة فدرسوها وشرحوها وألفوا في نحوها مثلما فعل (مفرّج بن مالك النحوي) الذي وضع شرحا على كتاب الكسائي، خاصة وأنهم كانوا يرحلون إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية في العراق ويلتقون بنحاتها الذين كانوا من الكوفيين.

إلى أن جاء محمد بن موسى الأفُشنيق (ت 307 هـ) الذي تبدأ معه مرحلة أخرى جديدة من تاريخ النحو الأندلسي، حيث كان ينشط لمذهب البصريين، ويدرّس في مجالسه كتاب سيبويه ، الذي أخذه عن أبي جعفر الدينوري بمصر. وأدخله الأندلس وكان شديد الاهتمام به يقول شوقي ضيف "وكان يضع دائما كتاب سيبويه بين يديه ولا يني عن مطالعته حال فراغه وشغله وصحته وسقمه". ويزداد الاهتمام بالمذهب

البصري عند المغربيين والأندلسيين على يد محمد بن يحيى الرباحي (ت 353 هـ) الذي رحل هو الآخر إلى المشرق والتقى بأبي جعفر النحاس في مصر وأخذ عنه كتاب سيبويه روايةً وعاد إلى قرطبة يفرغ له، ولقراءته على الطلاب، شارحًا له ومفسرًا تفسيرًا مبينا.

وفق منهج جديد يهدف إلى "تدبر أصول هذا العلم وعرض الآراء فيها على محك النقد المتحرر والحرص على حسن الاختيار" ونقد ما جاء به الأولون من آراء فرضوها فرضا، وحرص الرباحي على الإتيان بها مناسبة لقواعد النحو وأصوله.

أما النحو البغدادي الذي التقى فيه المنهجان البصري والكوفي فقد وصل بلاد المغرب والأندلس متاخرًا، حيث كثرت الآراء والتعليلات، وتسنت للنحاة فرصة الانتقاء والترجيح بين الآراء السابقة كلها، وخاصة ما اختاره البغداديّون كأبي علي الفارسي وابن جني. ولا يكتفون بذلك، بل يسيرون في اتجاههم من كثرة التعليلات والنفوذ إلى بعض الآراء الجديدة التي كشفت بوضوح ملامح منهجهم في دراسة النحو ومسائله.

ويعد الأعلم الشنتمري (ت 476 هـ) هو أول من نهج لنحاة الأندلس في قوةٍ هذا الإتجاه، حيث كان يختار لنفسه من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين كما كان يعاصر الأعلم ثلاثة من نحاة الأندلس عاشوا جميعا في عصر المرابطين وهم أبو محمد بن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) وابن الباذش علي ابن أحمد بن خلف (ت 528 هـ) وابن سليمان بن محمد الطّراوة (ت 528 هـ)، وكلهم ممن تفرّدوا بآراء نحوية لم يُسبقوا إليها وأسهموا في ترسيخ المذهب الأندلسي واستقلاليته. وكان مولعا بالبحث في العلل، ويرى أنه إذا استنبط منها شيئا فقد ظفر بطائل.

وعلى مر الأيام تكاثرت مسائل مذهب المغاربة والأندلسيين وشاعت قواعده وامتدت حياته حتى أخذه عنهم المشارقة بعدما ذاع صيت أعلام المغرب والأندلس في المشرق، وظهرت اسماء جديدة تحمل راية هذا المذهب النحوي من أمثال:

-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي (ت 570 هـ).

-أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر (ت 580 هـ).

-أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت 583 هـ).

-أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء القرطبي (ت 592 هـ).

-أبو موسى عيسى الجزولي (ت 605 هـ).

-أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن خروف (ت 610 هـ).

-أبو علي عمر بن محمد الشلوبين (ت 645 هـ).

-أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن هشام الخضراوي (ت 646 هـ).

-أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج (ت 607 هـ).

وخلاصة القول مما سبق أن مسيرة الدرس النحوي في المغرب والأندلس قد مرّت بثلاثة أطوار مختلفة، أولها طور الظهور والتكوين وكان قبل القرن الرابع الهجري ، حيث غلب على النحو الطابع التعليمي والتأديبي، وكان عبارة عن مسائل متفرقة يصحبها الكثير من الشعر والفقه والغريب. والثاني هو طور التقليد والارتقاء، وقد كان الاتجاه فيه أولا إلى مذهب الكوفيين وتدريس كتبهم وآرائهم كما نشط فيه بعد ذلك التوجه للمذهب البصري وتدريس كتاب سيبويه وتفسير مسائله، أما الثالث فهو طور الاستقلال والتمايز عن الدرس الشرقي وفيه ظهر الانتقاء والترجيح كما هو الحال

عند البغداديين وانتهى باستقلال المذهب المغربي والأندلسي وتفرّده بآراء نحوية ولغوية جديدة.

المحاضرة الثالثة: مظاهر الدرس اللغوي في المغرب العربي والأندلس

عرفت بلاد المغرب والأندلس حركة لغوية نشيطة لاسيّما في القرن الرابع الهجري الذي امتزجت فيه آراء البصريين والكوفيين وتطور فيه المذهب البغدادي، وازدهرت فيه العلوم اللغوية وارتبطت بالمنطق والفلسفة، وأصبح المعول في المعرفة على إقامة الحجة وإلتماس العلّة حتى في شؤون الدين.

وبدأت الثقافة اللغوية في الإتّساع والتخصص، بل وصاحبت مختلف المجالات والعلوم خاصة الشرعية منها باعتبار اللغة مكملة لها ومفسرة لمعانيها، فانتشرت إلى جانب كتب اللغة والنحو كتب في القراءات وعلوم التفسير، جاءت جميعها متأثرة بالمذهب الظاهري والنزعة اللغوية السائدة آنذاك.

وفيما يلي بيان لمظاهر الدراسات اللغوية في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين:

أ/ كتب النحو: تلقى نحاة الأندلس النحو بفكر علمي محض، هدفه المعرفة الصحيحة، إذ لم يلتزموا فيه التقليد والمحاكاة، وإنما حاولوا فرض رؤيتهم الشخصية، وتصوراتهم اللغوية، كما حكّموا الموروث اللغوي للفرز والنقد، وأخضعوه للقبول أو الرفض "ولم يتحرّجوا من إظهار مخالفتهم لآراء المشارقة إذا تعارضت وقناعاتهم الذهنية".

ومن أشهر نحاة المغرب والأندلس الذين ألّفوا في النحو وكانت لهم آراء انفردوا بها عن سابقيهم، نذكر:

1- ابن السيد البطليوسي (ت 528 أو 521 هـ مختلف فيه): وله مؤلفات عديدة في الفقه واللغة والنحو منها (الحلل على أبيات الجمل للزجاجي، كتاب المثلث، التنبيه على الأسباب الموجِبة للخلاف بين الناس في مذاهبهم).

ومن أبرز آرائه النحوية التي انفرد بها أن (حتى) لا تعطف المفردات فقط بل تعطف حتى الجمل نحو: "سرت حتى تكلُّ المطايا" برفع تكلُّ. وأن (ما) تقع صفة للتعظيم كما في قوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة" أي لأمر ما عظيم يسود من يسود.

2- ابن الطراوة (ت 528 هـ): وهو من أوائل النحاة الأندلسيين الذين كتبوا في النحو كتابة متخصصة تقوم على فقه أسراره وكشف غوامضه كما تقوم أيضا على تقديم الجديد المبتكر من الآراء، ومن مؤلفاته نذكر: المقدمات إلى كتاب سيبويه، الترشيح في النحو، مقالة في الاسم والمسمى، وكتاب الفصيح وهو الأثر الوحيد الباقي من مؤلفاته. أما آراءه النحوية فمنتشرة في كتب النحو خاصة ما تعلّق منها بنقده الشديد لابن جني وأبي علي الفارسي، ومن ذلك تصويبه لتعريف النحو حيث عرّفه بأنه "تسديد الذهن للتمييز بين الاستقامة في الكلام والإحالة" وهو يعبر عن طبيعة الدراسة النحوية في الأندلس. ردا على تعريف الفارسي له بأنه "علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب".

كما عُني ابن الطراوة بتحديد المصطلحات وتوضيح الفروق بينها وبيان دلالاتها.

3- ابن الباذش (ت 528 هـ): الذي صنف شروحا كثيرة على كتب مختلفة للبصريين والبغداديين منها (كتاب سيبويه والمقتضب المبرد، وأصول السراج، وجمل الزجاجي، وإيضاح الفارسي) وكان من خلالها يسعى إلى تيسير النحو وتبسيط مسائله، ومن آرائه التي خالف فيها جمهرة النحاة ذهابه إلى أن "لام المستغاث لأجله في مثل: يالـزيد لعمـرو، متعلقة باسم محذوف تقديره مدعوّا لعمرو وكان ابن جني يذهب إلى أنها متعلقة مع مجرورها بيـا".

وكان يذهب إلى أن المضارع في مثل (الهندان هي تفعلان يجوز فيه التذكير والتأنيث أوبعبارة أخرى أن يبدأ بالتاء أوالياء حملاً على اللفظ والمعنى).

4- ابن طاهر (ت 580 هـ): وهو عالم بالنحو والعربية، اشتهر بتدريس كتاب سيبويه، وله عليه حواشٍ عدة كما له تعليق على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي.

وتخرج على يديه علماء أجلّاء من بينهم ابن خروف، مصعب الخشني، عبد الحق خليل السكوني.

توسع في الاختيار من مذاهب النحاة السابقين، من ذلك اختياره رأي سيبويه وابن الباذش في أنه لا يجوز حذف أحد مفاعيل أعلم بدون دليل، واختار رأي السيرافي والأعلم في أن "مما" قد تأتي مرادفة لـ"ربّما". إضافة إلى اختياره من آراء البغداديين كما انفرد ببعض الآراء الأخرى منها "أن الشرّ في مثل "إياك والشرّ" منصوب بفعل محذوف تقديره (احذر الشرّ)".

5- السهيلي (ت 581 هـ): كان بارعا في العربية والتفسير وعلم الكلام له كتاب الروض الأنِف في شرح السيرة النبوية، وفي النحو له كتاب "نتائج الفكر"، وله فيه استنباطات دقيقة، وكان مولعا بالعلل النحوية شغوفا بها، تدور له في كتب النحو اختيارات مختلفة من مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين. كما له اجتهادات خاصة، فقد كان "ينظر في المسائل النحوية نظرة المفكر المبدع وهذا ما جعله يتخذ لنفسه منهجا مستقلا في القياس النحوي واللغوي". ومن بين آرائه النحوية قوله في تأنيث الفاعل "زعموا أن الاسم المؤنث إذا كان تأنيثه حقيقيا فلا بدَّ من إلحاق تاء التأنيث في الفعل، وإن كان تأنيثه مجازيًّا كنت مخيّرًا في إثبات التاء و تركها، وزعموا أن التاء في "قالت الأعراب" لتأنيث الجماعة وتأنيث الجماعة غير حقيقي. وقد كان على هذا لحوق التاء في قوله تعالى: "وقال نسوة" أولى إذا كان تأنيث النسوة حقيقة، واتفقوا على أن الفعل إذا تأخر عن فاعله فلا بدّ من إثبات تاء التأنيث وإن لم يكن تأنيثه حقيقة، ولم يذكروا فروقًا بين تقدم الفعل وتأخره، وفي هذا كله وهن لأصولهم ودليل على قلة تحصيلهم.

وذهب هو إلى أن الفاعل إذا كان مؤنثا حقيقة أو مجازا أوجب اتصال التاء بفعله، وكان متصلا به ولم يحجز بينهما حاجز واستدل على ذلك بقوله تعالى "فأخذتهم الصيحة" وقوله تعالى "وأخذ الذين ظلموا الصيحة".

6- ابن مضاء القرطبي (ت 592 هـ): أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن وهو من بين العلماء المشهورين في المغرب والأندلس صاحب كتاب (الرد على النحاة)

الذي جسّد ثورة المغاربة على النحو المشرقي، وتمرّد على قوانينه وهاجم النحو جملة والنحاة عامة، محاولا إلغاء بعض النظريات التي رآها تعقيدا وغلوًّا في النحو، كنظرية العامل التي هي أساس النحو العربي والإطالة في ذكر العلل النحوية.

إلا أن ثورة أبي مضاء القرطبي لم تجد قبولا لدى كثير من نحاة عصره، ومن ثم تصدى بعضهم لمقاومتها، كما فعل أبو الحسن علي بن محمد الاشبيلي الملقب بابن خروف (ت 610 هـ) في كتابه (تنزيه أئمة النحو عمّا نُسب إليهم من الخطأ والسّهو).

ومن علماء النحو الذين ظهروا في هذه الحقبة في المغرب والأندلس أيضا نذكر أبو موسى عيسى الجزولي (ت 605 هـ) صاحب المقدمة الجزولية التي اشتملت على الكثير من مسائل النحو لم يُسبق إلى مثلها.

ومنهم أبو علي عمر بن محمد المعروف بالشلوبين الذي اشتغل بتدريس النحو زُهاء ستّين عاما وكانت وفاته 646 هـ ونبغ على يديه ابن عصفور (ت 663 هـ) وابن مالك (ت 672 هـ).

المحاضرة الرابعة: مظاهر الدرس اللغوي في المغرب والأندلس

ب/كتب التفسير: بدأت نشأة علم التفسير في المغرب والأندلس منذ القرن الثالث الهجري، وكان بقي بن مخلّدت (ت 276 هـ) أول رواد هذا العلم، إلا أن كتبه ومؤلفاته اندثرت بعد وفاته وظهر بعده في القرن الخامس الهجري مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) القارئ والمفسر والنحوي وألف كتابه مشكل إعراب القرآن الذي يبحث فيما أشكل من إعراب القرآن فيفسره ويذكر علله، إلا أن اشتهار مكي بالقراءة غلب على جانب التفسير عنده.

كما اشتهر في القرن السادس تفسير ابن عطية (ت 546 هـ) الموسوم بالمحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز.

وظهر بعده العالم النحوي المفسر والمحدّث أبو حيّان الأندلسي (ت 745 هـ) صاحب تفسير البحر المحيط.

وكلاهما تفسير لغوي يعجّ بمسائل النحو واللغة، ويكشف عن مذهب صاحبه واختياراته النحوية.

1- المحرر الوجيز لابن عطية:

عني ابن عطية في تفسيره باللغة والنحو عناية كبيرة من الناحية التطبيقية، وهو ماينناسب طبيعة التفسير ومقاصده وغاياته، فتراه ينظر في إعراب القرآن ودقائق معانيه ويبين معاني مفرداته ومواقعها وأصولها وإعرابها، واشتقاقها وتصريفها، ويوجّه قراءاته مع ما يستدعيه ذلك من الاحتجاج بكلام الله تعالى وحديث نبيه ﷺ وأشعار العرب وكلامها.

وهو ما جعل تفسيره يصنف ضمن التفسير بالمأثور.

أما عن مذهبه النحوي فقد كان يستعرض آراء النحاة قبله مستعرضا إتجاههم النحوي من بصريين وكوفيين، نحو قوله في تفسير البسملة "الباء في (بسم الله) متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره ابتدائي مستقر وثابت بسم الله، وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره ابتدائي بسم الله، فبسم الله في موضع رفع على مذهب البصريين وموضع نصب على مذهب الكوفيين".

إلا أنه كان ميّالًا في غالب الأحيان إلى المذهب البصري.

2- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي:

ويعدّ مرجعا لوجوه إعراب ألفاظ القرآن الكريم وهو بذلك أقرب إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير لأن أبا حيان قد ذكر المسائل النحوية ذاكرًا اختلاف النحاة فيها. وقد وضح منهجه في مقدمة تفسيره قائلا "وترتيبي في هذا الكتاب أني ابتدأ أولا بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يُحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك اللفظة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكرًا سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسبتها وارتباطها بما قبلها حاشدًا فيها القراءات شاذّها ومستعملها، ذاكرًا توجيه ذلك في علم العربية. ناقلا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلما على جليّها وخفيّها، بحيث لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها مبديا ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب... أحيل في تقررها والاستدلال عليها على كتب النحو"

كان يميل إلى مذهب البصريين، مع ترجيحه أحيانا لمذهب الكوفيين إذا اتفق وآرائه النحوية من ذلك رأيه في العطف على الضمير المرفوعةالذي لم يجزه البصريّون إلا بالفصل بين المتعاطفين بتوكيد بضمير منفصل أو بغيره. وأجازه الكوفيّون ووافقهم أبو حيان في جوازه نحو (قمت وزيد) من غير فصل.

لأن صاحبه نحويّ قبل أن يكون مفسرًا، وله في النحو مؤلفات منها: التذييل والتكميل في شرح التسهيل، وملخصه ارتشاف الضرب من لسان العرب لذلك أكثر في تفسيره من ذكر المسائل النحوية.

ج/كتب القراءات:

لقد قرأ أهل المغرب والأندلس على القراءات التي جاءهم بها أهل المشرق، أي القراءات السبع المعروفة، إلا أن القراءة المشهورة بينهم هي قراءة نافع المدني

(ت 197 هـ)، التي كان يقرأ بها الإمام مالك، فزاد اعتناؤهم بها لأنهم يلتزمون المذهب المالكي. واختاروا رواية الإمام ورش عن نافع لكثرة تلاميذه من المغاربة.

واشتهر في المغرب والأندلس ثلاثة من أئمة القرّاء وهم مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني، وأبو عمرو الداني، وأبو القاسم الشاطبي.

1- مكي بن أبي طالب (ت437هـ): الذي ولد بالقيروان ورحل إلى المشرق وتلقى علوم القراءة بمصر وارتحل إلى الحجاز ثم عاد إلى الأندلس.

ومن أشهر مؤلفاته (التبصرة والقراءات) و (الإبانة في معاني القراءات) و(الكشف في وجوه القراءات وعللها) الذي جمع فيه خلاصة معارفه واختياراته وآرائه في القراءة، وكانت الآراء النحوية والتخريجات أداته الفاصلة في التمييز بين القراءات، كما كان يحتكم إلى قؤاعد النحو في إثبات صحّة قراءة على غيرها، ولا يتردد في تخطئة النحاة إذا كان رأيهم لا يوافق القراءة الصحيحة.

2- أبو عمرو الداني (ت 444 هـ): عثمان بن سعيد المعروف بالصّيْرفي رحل إلى المشرق فنزل مصر وبغداد والحجاز ثم عاد إلى الأندلس وقد بلغ الغاية في القراءات وانتهت إليه رياستها، وإلى روايته أسانيدها، وتعددت تآليفه وعوّل عليها الناس وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب (التيسير في القراءات السبع).